

تمهيد

لعل أول ما ينبغي البدء به؛ هو تبيان الصعوبة الإبيستمولوجية التي يتسم بها موضوع الرحل والمدرسة في دراسة علاقة الانسان بالتنمية في مغرب الغد، خاصة فيما يخص مدى إمكانية ادراجه ضمن خانة علم الاجتماع القروي بمفهومه الغربي، الذي يستبعد الفكرة الجاهزة التي تتبادر إلى الذهن وتصنفه في هذه الخانة لتضفي وضوحا زائفا على الموضوع، الفكرة التي لا تقيم تميزا بين القرى/ المزارع والرحل كقئة لم يعد لها أثر في المجتمع الغربي إذا ما قارناه بالمجتمع المغربي. لكن هل سيبقى هذا الاشكال مطروحا بعد ابتكار فكرة مدرسة الرحل التي تهدف إلى تعميم التعليم باعتباره الركيزة الأساسية في التنمية أم أن معالم هذا الموضوع ستتغير؟ هذا ما سنحاول أن نبينه بطريقة غير مباشرة انطلاقا من إشكالية بحثنا التي سنعمل من خلالها على رصد سيرورة التحولات والتغيرات التي صاحبت الرحل منذ ظهور هذه التجربة.

إن مسألة تعميم التعليم كانت بمثابة الهاجس الأساسي لدى الدولة منذ سنة (1963) حيث صدر ظهير إلزامية التعليم ما بين سن 7 و13 سنة والذي تم تعديله سنة (1991)، وصولا إلى سنة (1999) التي صدر فيها الميثاق الوطني للتربية والتكوين الذي لا يمكن انكار ما جاء به لكونه من الوثائق التي لا يمكن القفز عليها إلى حد الآن رغم قصوره في تحقيق التعميم الذي لازال من المواضيع المطروحة بشكل راهني. هذا القصور يتضح في كون بعض الفئات من التي حدد الظهير إلزامية تدرسها لم تطأ قدمها يوما المدرسة، ومنها جل أبناء الرحل بالجنوب الشرقي عامة ورحل منطقة تيداكلين خاصة لأنهم نشؤا على مهنة الرعي والترحال التي تشبث بها أباؤهم وورثوها عن أباؤهم منذ القدم. لكن منذ سنة (2009) تم ابتكار مدرسة الرحل، الحدث الذي تزامن مع المخطط الاستعجالي الذي حاول أن يستدرك ذاك القصور الذي تعاني منه المدرسة المغربية كما عبر عنه المجلس الأعلى للتعليم سنة (2008) ولازال من الأمور الراهنة خلال القرن الواحد والعشرين¹، محاولا تسريع وثيرة الإصلاح مركزا على

¹ أنظر في هذا الصدد مقال ل: YOUSSEF SAADANI بعنوان، La crise de l'école marocaine n'est pas une fatalité

نشر بتاريخ، 30 يوليوز 2019، على الساعة، 17:54، تاريخ الاضطلاع، 01، غشت 2019،

على الساعة، 16:40، على الرابط التالي: <http://www.medias24.com>.

الانسان والتنمية: أي مجتمع للغد من خلال دراسة سيرورة ومآل تجربة مدرسة الرحل

المجالات التي حددها، جاعلا أول أهدافه التحقيق الفعلي لإلزامية التعليم إلى غاية سن 15، وربطه بتعميم التعليم الأولي².

² التقرير التركيبي للمخطط الاستعجالي (2009-2012)، نونبر 2008، ص. 3.

1) إشكالية البحث وفرضياته:

يعتبر موضوع الرحل من المواضيع التي اهتم بها العديد من الباحثين المغاربة والأجانب كل حسب تخصصه، فالرعي كعملية أساسية عند الرحل لعبت دورا أساسيا في المجتمع القروي المغربي مساهما حسب ابن خلدون في جزء كبير من الاقتصاد البدوي L'économie nomade قبل ظهور الأنشطة الغير المرتحلة Les activités sédentaires؛ وبذلك يكون قد احتل مكانة لم يسبق لها أن احتلت في تاريخ المغرب القروي. لكن التحولات التي يشهدها العالم أفرزت مجموعة من العوامل منها الايكولوجية والاجتماعية التي مست هذه الفئة وساهمت في تراجعها، فهناك من يرجعه إلى ظاهرة الجفاف³ La sécheresse؛ ومن يربطه بصعوبة الحصول على الرعاة Les bergers مع استياء الشباب الذين سيتم جلبهم من خلال الأنشطة التي تقدم رواتب أفضل وانفتاح أكبر نحو العالم⁴؛ إنه عامل الهجرة في كلمة واحدة. أما البعض الآخر فيربطه بمجموعة من العوامل منها: النمو الديمغرافي، الهجرة الوطنية والدولية، ظهور وسائل الاتصال في الحياة اليومية للعائلات، تدريس الأطفال⁵... إلخ، والتي تعتبر وجها من أوجه الحداثة التي مست هذه الفئة. كل هذه العوامل وغيرها جعلت آخر رحل القرن الواحد والعشرين يخطون ما تبقى من هذه القصة، وجعلت العديد من الباحثين يروجون لما يسمى بأزمة الرحل La crise de nomadisme.

إن ظهور تجربة مدرسة الرحل سنة (2009) التي كان الهدف منها تدريس أبناء الرحل واخراجهم من الجهل إلى نور العلم حسب تعبير بعض المسؤولين الذين كانوا وراء هذه المبادرة

³ RACHIK (2012). Op. cit., p. 17.

⁴ CHICH Jeanne, " Berger au Maroc : Métier, emploi et tendance de l'élevage ", Bulletin d'information sur les systèmes pastoraux du Nord de l'Afrique et du Sahel, n°. 3, vol 5, Décembre 1995, P. 26.

⁵ MAHDI Mohamed, DOMINGUEZ Pablo, "Regard anthropologique su la transhumance et modernité au Maroc" Journal of Depopulation and Rural Development Studies, ager, n°. 8, 2009, p. 71.

الانسان والتنمية: أي مجتمع للغد من خلال دراسة سيرورة ومآل تجربة مدرسة الرحل

بشراكة مع جهات رسمية وغير رسمية(*)⁶، كان الدافع الأساسي وراء اختيار العامل الأخير الذي سبقت الإشارة إليه لاختباره انطلاقاً من التأثير والتحول الذي أحدثته هذه المدرسة على العائلات وأبنائها وعلى نمط الرعي والترحال. فإذا كان تدريس أبناء بعض الرحل يعتمد من قبل على إرسالهم إلى العائلات أو الأقرباء الذين يسكنون المدن أو القرى وبقاء الآباء لمزاولة الرعي والترحال، فإن ما جاءت به مدرسة الرحل ذات الطابع المتنقل هو تجاوز الفصل الذي كان من قبل؛ وذلك بتقريب المدرسة للرحل مقابل تجميعهم على شكل مجموعات في مجال جغرافي معين يسمح بولوج أبنائهم ما يسمى بالخيمة المدرسة لتنميتهم والتقليص من نسبة الأمية. لكن لم تستطع الصمود لسنوات طويلة أمام الرياح والأمطار والتلوج التي تعرفها المنطقة؛ الشيء الذي دفعهم إلى التفكير في بناء المدرسة من جهة، وإعادة التفكير في نمط عيشهم من جهة أخرى. هل حان، بالفعل، الوقت للحديث عن أزمة الترحال التي يروج لها وعن جنوح الرحل نحو الاستقرار؟ أم أن ما سيحدث هو شيء آخر؟!

وفق هذا التصور فإن الإشكالية العامة لبحثنا تمت بلورتها كآتي: إلى أي حد ساهم ظهور تجربة مدرسة الرحل في تنمية وإعادة تنظيم الرحل وتغيير نمط عيشهم عوض إعادة إنتاجه؟ والتي تم تجزئها في الأسئلة الفرعية التالية:

- ✓ كيف يستجيب التلاميذ وعائلاتهم لنوع التعليم الذي جاءت به مدرسة الرحل؟
- ✓ ما التغيير الذي أحدثته على مهنتهم وعلى أشكال التنظيم التي كانوا يعتمدونها من قبل؟
- ✓ ما هو تصورهم لمستقبل الرحل في ظل ما جاءت به المدرسة؟

⁶(*) ما يؤكد هذا القول قول السيد علي الأمين، فاعل جمعوي ورئيس جمعية شمس والذي كان وراء جلب المدرسة المتنقلة إلى المنطقة بعد مفاوضات مع داعمين أجانب حيث قال «فكرة المدرسة جاءت بسبب معرفتي ببعض الأصدقاء بإسبانيا، قدموا إلى المغرب سنة (2000) في زيارة خاصة، وقمنا بجولة في الجبل، فلاحظوا عدم توفر العديد من الحاجيات، ففكروا في تنظيم قافلة إنسانية العام المقبل لمساعدة هؤلاء الناس. اختاروا الميدان التربوي، فهو الأمل لاتقاد الناس هنا لأن توزيع المأكولات واللباس لن تستمر، نريد مساعدتهم بشيء يستمر معهم في حياتهم على المدى البعيد. وبالفعل، اتصلنا مباشرة بناية التربية الوطنية بورزازات، وتحققت فكرة مدرسة الرحل سنة (2009) بفضل نائب مديرية تينغير، وذهبنا أنا والإسبانيين وأطلعناه على فكرتنا وكان رده بالقبول». .

الانسان والتنمية: أي مجتمع للغد من خلال دراسة سيرورة ومآل تجربة مدرسة الرحل

إن الأهم من صياغة الإشكالية هو إنضاج الفرضيات، باعتبار الفرضية تمكن من صياغة سبب بنتيجة على شكل يسمح بالتحقق التجريبي⁷ وتنظيم مسار البحث. في هذا الصدد فإن فرضيات بحثنا تمت صياغتها كما يلي:

❖ **الفرضية الرئيسية:** نفترض أن التعليم الذي جاءت به مدرسة الرحل ساهم في تنمية الرحل.

❖ **الفرضيات الفرعية:**

❖ نفترض أن ظهور المدرسة يعتبر عاملاً رئيساً في تنمية وإعادة تنظيم وتوطين وتغيير نمط عيش الرحل.

❖ نفترض أن مستقبل الرحل في أزمة في ظل ما جاءت به مدرسة الرحل.

⁷ تيودور كبلوف، البحث السوسولوجي، دار الفكر الجديد-بيروت، ترجمة: نجاه عياش، تدقيق: عسان سلمان، 1979، ص، 97.

2 (منهج البحث وتقنياته

إن الظاهرة التربوية ظاهره جد معقدة وتزداد تعقيدا عندما يتعلق الأمر بفئة الرحل وبالمجال الذي يشغلونه وبنمط عيشهم أمام تجربة المدرسة، حيث أن مقارنتها يتطلب الانطلاق من زاوية تنظر للموضوع في شموليته. لذلك اعتمدنا من الناحية النظرية على أهم المفاهيم والنظريات والمقاربات التي اهتمت بالموضوع من وجهة سوسيو-أنتربولوجية باعتماد المقاربة المنوغرافيا. بالإضافة إلى بعض التجارب المماثلة دوليا بهدف الإحاطة بمختلف القضايا التي يطرحها الموضوع. وبالاستناد كذلك على ما نشر حول الموضوع حيث سعدنا في فهم المعالم الأولى للتجربة باعتماد تقنية تحليل المضمون التي فتحت لنا المجال لإجراء المقابلات مع مختلف الأطراف المشاركة، في ابتكار هذه التجربة وكذا تصور المعنيين بها، واستثمارها إلى جانب تقنية الملاحظة بالمشاركة لرصد سيرورة تأثيرها وتحولها (تجربة مدرسة الرحل) على الرحل.

1) مدرسة الرحل: نشأتها والعوامل المصاحبة لسيرورة تطورها

1-1) سياق نشأة مدرسة الرحل

إن معظم الدراسات التي اهتمت بالمدرسة والتربية والتعليم غالبا ما تركز على الميكانيزمات الكامنة وراء إشكالية الحركة المدرسية والاجتماعية وتفاوت الحظوظ وعملية إعادة الإنتاج بين مجالين إثنين لا ثالث لهما، ألا وهما المجال القروي والحضري في علاقتهما بالبنية التعليمية العامة. هذا التحديد في طبيعة المجال يفرض علينا استحضار الإشكال الإبستمولوجي الذي سبق وأن أشرنا إليه في تناول سيرورة نشأة مدرسة الرحل ذات البعد التنموي والتي أصبح التوجه نحوها يفرض نفسه أمام مسألة التعميم محاولين معرفة سياق نشأتها، مميزاتها، أهدافها ومستقبلها الغير الواضح المعالم والغير المهيا له بما فيه الكفاية بالنسبة لفئة ألفت الارتكاز دوما على ماض يعرف فيه كل واحد دوره ووظيفته؛ حيث وجود نوع من تقسيم العمل البسيط بين الرجال والنساء في عملية الرعي، يجعل النساء والأطفال يتكفون بمسؤولية رعي بعض القطيع قرب المنزل (الخيمة) وبجوار الجيران، بينما يتكف الرجال البالغون بمرافقة القطيع أزيد من خمسة كيلومترات عن مكان الإقامة. لكن ما يتضح هو أن الجيل الجديد (الأطفال) سيتلقى تنشئة ثانية غير التي ألفها كل جيل من الأجيال السابقة في الأسرة، إنها التنشئة المدرسية والتي ستفرض عليهم أدوار ووظائف أخرى لا محال.

لقد كان وراء ابتكار و تأسيس مدرسة الرحل وتمكين أطفالهم من التمدرس مجموعة من الفاعلين، حيث أن التفكير فيها بدأ منذ سنة (2000) بعد أن قامت مجموعة من الإسبانين بزيارة المنطقة بفضل رئيس جمعية شمس الذي اصطحابهم إلى الجبال ليكتشفوا فئة تم إقصائها من مجموعة من الحقوق منها التربية والتعليم كحق من حقوق الإنسان؛ الأمر الذي جعل هؤلاء الفاعلين يصرون على تأسيسها بعد أن تم القيام بالإجراءات الأولية، وذلك بالاتصال بوزارة التربية الوطنية بمدينة ورزازات وبمدير مدينة تنغير الذي يتواجد بالمنطقة المعنية بإنشاء المدرسة، ليتم بعد ذلك التأسيس الفعلي لها سنة (2009).

إن هذه التجربة تعتبر الأولى في المغرب أي على المستوى الوطني، لكن على المستوى الدولي نجد بأنه قد شهد عدة تجارب منها: تجربة مدرسة رحل Hoggar التي تعتبر بمثابة

" مشروع تم تقديمه للحاكم العام le gouverneur général والذي يضم مجموعة من الأفكار التي تم تلخيصها، حيث كان أولها: كون الكولنياليين (المقصود هنا هم الفرنسيين والإداريين في جنوب الصحراء) قاموا بخلق مدارس الرحل وفرضوها، لكن في معظم الأحيان فإن أبناء عبيد les esclaves توارغ Touaregs هم من يتم إرسالهم إلى المدارس. ثانيها يكمن في كون هذه السياسة المقيدة والعنيفة في التربية والتي هي في طور قلب التراتبية الاجتماعية وتمهد لمستقبل الفوضى le désordre الذي سيكون فيه ضحايا لأن les Touaregs هم محاربين، معلمين حقيقين في البلاد، والعبيد وحتى الوزير، ما هو إلا عبيد دائما بالنسبة لهم. إننا إذن نحظر لمستقبل نخبة élite سيتم وضعها في المقام الأول. آخر هذه الأفكار يسعى إلى الحفاظ على وضعية شرفية بالنسبة إليهم: أي أن تدريس أبناء الرؤساء تحت الخيمة هي عملية معقدة، لكن سيتم إقناعهم وترويضهم، رغبة في خلق جيل جديد لإدماجهم في مؤسساتنا كمساهمين، وذلك بالحفاظ ما أمكن بثقافة Touaregs وبتحضر les arabo-musulman [...]. هذا البرنامج السياسي المدرسي كان يتمشى تماما أنذاك مع الوضع الراهن الخاص للجيش الفرنسي الذي اتفق مع les Touaregs لابتكار مدرسة الرحل التي ستواجه بشكل رسمي الطبقات الاجتماعية الموجودة [...] ففي أكتوبر سنة 1940 تم خلق منصبين لمدرسي الرحل تكملة للمنصبين المقدمة في Tamanrasset⁸. لكن السؤال المطروح في حالتنا هذه يتعلق بمدى قبول ووعي هذه الفئة بفكرة المدرسة وبتأثيرها على نمط عيشهم؟

إن تناول هذا الإشكال يذكرنا بمرحلة الاستعمار، ويردود فعل الأهالي تجاه "المدرسة الحديثة (الكولونيالية) التي تأسست سنة 1940 بكل من كلميمة (غريس) وتتجداد وأسول. المدرسة التي لم يكن لديها أي إغراء لرحل هذه الجهة، لكن لولوج الوظيفة العمومية كان لزاما المرور عبر المدرسة حيث طرح سؤال مدى قبول الآباء بتسجيل أبنائهم. في الوسط المستقر le milieu sédentaire كانت نتائج بعض المتمدرسين جيدة رغم التراجع الملحوظ في أعدادهم إثر عزوف وعدم ثقة آبائهم تجاه ما يسمونه "européanisation" التي قد تصيب

⁸ Marceau Gast, L'école nomade au Hoggar : une drôle d'histoire, in revue musulman et de la Méditerranée, fichier PDF généré 19/07/2018, p., 100,101.

الانسان والتنمية: أي مجتمع للغد من خلال دراسة سيرورة ومآل تجربة مدرسة الرحل

أجيالهم⁹ من جهة، وكذا "عبر الخوف من المدرسة الاستعمارية، الذي اتخذ صورة خواف التصير رغم غموضه ولبسه، ليس من الخوف من ضياع العقيدة فحسب ومن ثمة اجتثاث الهوية كلها، بل وعن سيرورة الهوية أيضا وصيرورتها عبر المزاحمة القوية لأساليب التنشئة التقليدية الدنيوية التأهيلية والدنيوية والميتافيزيقيا"¹⁰ من جهة أخرى. إذن، هل سيتكرر نفس الأمر بالنسبة لمدرسة الرحل؟ ولمن ستعطي الأولوية على حساب الآخر، هل للمدرسة وتربية الأطفال أم لنمط الرعي والترحال؟!

لقد أبانت كل أقوال المستجوبين عن هذا السؤال على مدى قلقهم أثناء سماعهم بهذا الخبر؛ حيث أن التفكير في مستقبل نمط عيشهم ومستقبل أبنائهم أمران لا يقل أحدهما أهمية عن الآخر، غير أن الوقت يفرض عليهم اختيار الحل الأنسب ومادامت المدرسة متنقلة كان عليهم القبول بالفكرة. إن القبول بالمدرسة المتنقلة يعني لهم تدريس الأطفال والحفاظ على نمطهم، لأن طابعها سيسمح لهم بالتنقل تبعا لحاجيات قطيعهم الذي يفرض عليهم الترحال كلما كانت المراعي les pâturages والماء لا تكفي لسد حاجته، وبالتالي ما كان عليهم سوى القبول بتسجيل أبنائهم ومصاحبتهم إلى مكان الخيمة المدرسة الذي تم اختياره بتوافق مع كل الرحل بعد أن تم تجميعهم في مجال محدد يسمح لأبناء كل منهم بولوجها.

إن لطبيعة المجال أهمية كبرى حيث أن اختياره لم يأتي جزافا وإنما بتوفره على مجموعة من الخصائص التي تتلاءم وحاجيات كلا الطرفين، حيث وجود الماء وقابليته للرعي كان أمرا ضروريا للرحل، وكونه لا يبتعد عن الطريق التي تمكن الأساتذة من ولوج الخيام المدرسية كان أمرا لا يقل أهمية كذلك رغم بعض المسافات التي يقطعونها مشيا على الأرجل نظرا لبعدها عن الطريق الرئيسية، والقرب من السوق لجلب الحاجيات الضرورية باعتباره النقطة المشتركة بينهما هذا من جهة، وهو ما يؤكد قول Brunhes حيث بين بأن " الجماعة الإنسانية تركز على ثلاثة عناصر مكونة لها: المنزل، الطريق، والماء [...] هذه العناصر الأساسية تمنح

⁹ SKOUNTI Ahmed, le sang et le sol nomadisme et sédentarisation au Maroc, Institut Royal de la culture Amazigh, Rabat, 2012, P. 233.

¹⁰ قسطنطين بن محمد، واحة غريس والاستعمار: آليات التحول وأشكال المقاومة، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، دار أبي رقرق للطباعة والنشر بالرباط، 2018، ص.100.

الانسان والتنمية: أي مجتمع للغد من خلال دراسة سيرورة ومآل تجربة مدرسة الرحل

التموضع والتوطين المجالي للعلاقات الإنسانية¹¹. إن المجال هنا لا يعتبر كمجال فيزيقي Espace physique فقط وإنما كمجال اجتماعي أيضا لهذا نجد بيير بورديو يميز بينهما "فالأول قد يعني الحيز، والسطح، والمكان المشغول أو المحتل من طرف فرد ما (التموضع)، أو المكانة بالنسبة لغيره، (فوق، تحت، بين...)، والمسافة التي تفصله عنه، أو رتبة في نظام معين. أما الثاني أي المجال الاجتماعي Espace social، الذي يتشكل من العلاقات الاجتماعية ويتحدد بالإقصاء المتبادل أو التمايز للوضعيات التي يتكون منها، أي كبنية لتجاوز وضعيات اجتماعية. وهذا النوع من المجال هو من إنتاج المجتمع لأن المجال المأهول يرمز للمجال الاجتماعي، فما من مجال في مجتمع ترابي إلا ويكون معبرا عن الفوارق والمسافات الاجتماعية. ولهذا فالمجال الاجتماعي يترجم في مكان فيزيقي، ومكانة فرد ما في المجال الاجتماعي تتجلى في المكان الذي يتموضع فيه في المجال الفيزيقي، وفي الحيز الذي يشغله"¹². إن هذا التمييز في المجال نجده حاضرا في الحالة التي نحن بصدد دراستها حيث أن بحث الرحل عن مجال بخصائص معينة كالتالي ثم ذكرها سابقا والتموضع فيه تعتبر كلها من بين خصائص المجال في مستواه الأول أي الفيزيقي. أما على المستوى الثاني المتعلق بالعلاقات الاجتماعية فنجد، ومن جهة أخرى، بأن إعادة تنظيم الرحل فيه la réorganisation des nomades بعد عملية إعادة تجميعهم يعد من الأشياء التي يجب الاتفاق عليها بين الرحل لكي يعرف كل منهم ضوابط هذه العملية، حيث الانتقال من حالة الجار الواحد "أمزدوغ" بعد فترات الجفاف التي كانت سببا مباشرا فيه إلى حالة "إمزداغ" أي الجيران بفعل التجميع الذي فرضته المدرسة؛ يفرض وضع مسلمات توضح كيفية تدبير المجال بين الرحل ونذكر منها:

- تموضع الخيم في نفس الواجهة وبنفس الشكل الذي وضعت بها الخيم الأخرى، حيث لا يسمح للجار تنصيب خيمته في اتجاه جاره وخاصة في اتجاه ما يسمونه

¹¹ GRAFMEYER JOZEPH, L'ECOLE DE CHICAGO naissance de l'écologie urbaine, Chicago, les éditions du champ urbain, CRU, 1979. 1984, 1990, Aubier, 2004, p. 151.

¹² النجاري زينب وآخرون: قضايا في سوسولوجيا التربية النوع والبيئة والقيم، ط1، مطابع الرباط نت، 2018، ص، 82-

"ASMGANO" أي مكان نوم الماشية ليلا نظرا لما يترتب عنه من أضرار كنفقاصان حجم القطيع وغيرها كما يتمثله الرحل في متخيلهم؛

- عدم السماح بالرعي بجوار خيمة الجار تفاديا لاختلاط القطيع بصغار قطيع الجار وكذا احترام حرمة؛
- تقسيم واجهات الرعي بين الرحل والتتأوب عليها تبعا لأماكن تواجد الماء، لتفادي استنزاف المراعي والماء من جهة، وضمان الاكتفاء للقطيع أوقات الجفاف أو فترة الصيف من جهة أخرى؛ لأن كمية المياه قد لا تكفي لسد حاجيات كل قطيع الرحل؛
- ضمان الأمن حالة وجود الغريب.

من خلال ما سبق؛ يتضح البعد الاجتماعي للمجال والترابط القائم بينه وبين المجال الفيزيقي، إلا أنه في حالتنا هاته فإن ما يحدده ليس الإقصاء المتبادل، وإنما ما يحدده هو التوافق المبني على المسافات الاجتماعية والتمايز للوضعيات التي يتكون منها، أي كبنية لتجاوز وضعيات اجتماعية كالصراعات مثلا. إن "البيئة البشرية l'écologie humaine حسب Roderick D. McKenzie تهتم أساسا بتأثير الوضعية في الوقت والمجال في الآن نفسه على المؤسسات الإنسانية والسلوك الإنساني [...] فكل مجتمع يتكون من أفراد مفترقين في مجال، وموزعين على تراب territoire معين، قادرين على تشكيل قاطرات مستقلة. كما أن العلاقات المجالية بين الكائنات البشرية محددة بالتنافس la competition وبالانتقاء la sélection وتتطور باستمرار بدخولها في لعب العوامل الجديدة التي تجعل علاقات التنافس تختل أو تيسر الحركية"¹³.

لقد كانت عملية إعادة تجميع الرحل la réassociation des nomades غير ممكنة لولا فكرة المدرسة والعكس صحيح، لأن إنشاء المدرسة يتطلب وجود أكبر عدد ممكن من التلاميذ. فإذا كان بعض الباحثين يرون بأن ما كان يجمع الرحل هو الإبل¹⁴ فإن ما يجمع هؤلاء الرحل بعد تفككهم بسبب الجفاف الذي عرفته سنوات السبعينات والثمانينيات وعوامل أخرى لن نغوص فيها، هو المدرسة؛ حيث اجتمع الرحل من أجل تدريس أبنائهم والاستفادة

¹³GRAFMEYER JOZEPH, (2004), ibid., p. 150.

¹⁴ RACHIK Hassan,(2012) , ibid., p.51.

الانسان والتنمية: أي مجتمع للغد من خلال دراسة سيرورة ومآل تجربة مدرسة الرحل

من هذه التجربة التي تعتبر الأولى من نوعها في تاريخ الرحل؛ حيث نجد أنه بفعل عملية إعادة تجميع الرحل هاته بلغ عدد التلاميذ اللذين التحقوا بالخيمة المدرسة أنداك خمسون تلميذاً. إن للخيمة المدرسة خصائص تميزها، حيث أن طبعها المتنقل كان أولها؛ وكونها لا تستكمل عدد شهور السنة الدراسية كما هو معتاد في الوسط القروي أو الحضري لأن حلول فصل الصيف لهذه الفئة المتواجدة في المناطق شبه الصحراوية يفرض عليها ممارسة فعل الانتجاع Transhumance بين السافلة le bat وما يسمونه "أدرار Adrar" أي العالية le haut، الشيء الذي يفرض على الأطفال مغادرة المدرسة في وقت مبكر، حيث أن بداية الدخول المدرسي يتم عندهم في بداية شهر أكتوبر أي بشكل متأخر عما هو معهود في الدخول المدرسي الرسمي. بينما نهاية السنة الدراسية تبدأ منذ شهر ماي حتى شهر يونيو في بعض الحالات، أي قبل الوقت الرسمي المحدد وهو ما جعل الرحل يستشفون وجود الهوة بين الممارسة والخطاب الذي تخفيه تجربة مدرسة الرحل. ثالث هذه الخصائص كونها مشتركة أي أنها تتضمن مستويين على الأقل، بالإضافة إلى أن سن بعض التلاميذ يتجاوز السن الذي حدده كل من الميثاق الوطني والمخطط الاستعجالي، حيث نجد في المستوى الرابع والخامس مثلاً كما بينه أحد أساتذة الخيمة المدرسية بأن سن بعض التلاميذ في إحدى هادين المستويين يتراوح ما بين خمسة عشر وستة عشر سنة بل يصل حتى إلى السابعة عشر حيث كان من المفروض أن يكونوا في الإعدادي والثانوي.

في ظل كل هذه الظروف فإن الهدف أو الغاية الأسمى التي تسعى هذه المدرسة بلوغها تتمثل ليس في جعل أبناء الرحل يتعلمون القراءة والكتابة فقط، وإنما جعلهم يتفرون على شهادات عليا تسمح لهم بتسلك السلم الاجتماعي رغم بعض المشاكل التي يواجهها الأساتذة من جهة، والتلاميذ من جهة أخرى؛ والمتمثلة في كون بعض المواد لا تتلاءم مع المحيط السوسيو-ثقافي للتلميذ مما يشكل عائقاً في العملية التعليمية التعلمية، بالإضافة إلى غياب الوسائل البيداغوجية التي تمكن من تقريب مضامين المقررات الدراسية؛ وهو ما يستلزم من واضعي المناهج مراعاة خصوصيات هذه الفئة.

من هنا يتضح لنا الحاجة الملحة لليد العاملة التي سيحتاجها الرحل بعد حصول أولادهم على الشواهد والديبلومات التي ستفتح لهم آفاقاً وانفتاحاً أكبر على العالم، وهو ما جعل الرحل

الانسان والتنمية: أي مجتمع للغد من خلال دراسة سيرورة ومآل تجربة مدرسة الرحل

يروجون لما يسمونه " الوحيد" حيث أن جل المبحوثين واعيون بذلك من خلال تكرارهم العبارة التالية «إتشاياغ الوحيد» أي غياب اليد العاملة الكافية التي يحتاجونها لمزاولة مهنتهم بسبب تدرس الأطفال والذي سيزداد وضوحاً بعد حصولهم على الشواهد. إنها المرحلة التي حان فيها الوقت للتساؤل عن مآل ومستقبل الرحل.

لقد استطاعت تجربة مدرسة الرحل أن تستمر ما يقارب ست سنوات في نظر المعنيين بها، رغم كل ما تسببه فيها العوامل المناخية حيث وجود الرياح أو تساقط الثلوج بالمنطقة يؤثر فيها في غالب الأحيان؛ والتلاميذ هم من يتكفون بإعادة بنائها إن لم يتم إخبار الآباء بالأمر. إن توالي هذا الفعل جعل الرحل يطالبون جهاز الدولة ببناء قسم بالإسمنت يأوي أبناء الرحل، وبالفعل، تمت الموافقة عليه وبدأت عملية البناء وهي فرصة للعمل بالنسبة لألائك الذين لم يحالفهم الحظ لدخول المدرسة. إن بناء المدرسة بالنسبة لفئة ألفت عملية الرعي والترحال سيجعل كل باحث مهتم بهذا المجال يطرح سؤالاً عريضاً يتعلق بالتحويلات المصاحبة لبناء المدرسة على الرحل.

(2) تأثير بناء المدرسة على نمط عيش الرحل

إن ابتكار فكرة مدرسة الرحل وتأسيسها وصولاً إلى مرحلة بنائها وتوطئتها، كان نتيجة فعل جماعي بين مختلف الفاعلين. ومما لا شك فيه أن هذا الفعل واجهته مجموعة من العراقيل منذ بداية التفكير فيه حيث أن إقناع الرحل بالفكرة وإعادة تجميعهم تم إعادة تنظيمهم كانت أبرزها. لكن الغاية الأسمى التي أنشأت من أجلها المدرسة بدأت تتضح نتائجها إثر الاستمرار والنجاح الذي حققه الأطفال الذين ولجوها، وجعل الفاعلين يفكرون في التنسيق مع السلطات المحلية ليستكمل الأطفال الذين تجاوزوا المرحلة الابتدائية دراستهم في ظروف ملائمة. لكن ماذا عن الرحل ومهنتهم؟

لقد كانت لمدرسة الرحل أثر على مهنة الرعي والترحال حسب الرحل أنفسهم، حيث أن تجربتها أسفرت إلى ظهور نتائج غير متوقعة les effets pervers ولا مفكر فيها إثر بناء المدرسة الذي يعتبراً عاملاً أساسياً في جنوح الرحل نحو الاستقرار. فإذا كان قبول فكرة المدرسة لدى الرحل مرتبطاً بطابعها المتقل الذي يسمح لهم بمزاولة مهنتهم، فإن بنائها جعلهم يعيدون النظر في نمط عيشهم؛ الشيء الذي أدى إلى ظهور المعالم الأولى للتحول في حياة الرحل.

إن أول مظاهر التحول هاته بعد بناء المدرسة تتمثل في مزاولتهم لأنشطة زراعية وأنشطة البناء وتوطين أنفسهم في منظومة عيش مستقرة، كل هذه العمليات أصبحت ضرورية بالنسبة لهم؛ حيث أن عملية الترحال لم تعد ممكنة. فإذا كانت معظم الدراسات المنجزة حول عوامل استقرار الرحل ترجعه إلى ظاهرة الجفاف التي شهدتها سنوات الستينيات إلى التسعينيات من القرن الماضي كعامل مباشر دون أن ننسى انتباه بعضها للعوامل الأخرى كظهور وسائل الاتصال في حياة الرحل وتدریس أبنائهم التي لم تتل نصيبها من الدراسة لتبيان تأثيرها عليهم، فإن استقرارهم في المرحلة الراهنة وخاصة في الحالة التي نحن بصدد دراستها كان نتيجة عامل آخر ألا وهو بناء المدرسة عامة، وت مدرس الأطفال بشكل خاص والذي أصبح يعم على الرحل في مختلف المناطق كإمي نوزيغام بأسول وغيره باعتبارها مبادرة تدخل ضمن الرؤية الاستراتيجية للإصلاح (2015-2030)، حيث يعتبر سببا في غياب اليد العاملة الكافية للرحل؛ مما جعل هذا الجيل الجديد يضع نقطة فاصلة في تاريخ الترحال.

إذا كان تعلم الأطفال للقراءة والكتابة غير ممكن لولى وجود المدرسة والمربي/المعلم، فإن تعلم الرحل للأنشطة الزراعية وأنشطة البناء لم يخضع لأي تكوين بقدر ما يخضع لفعل المحاكاة؛ حيث أن حرث الأرض وغرس الأشجار يتم بفعل محاكاة أفعال القرى المجاورة وذلك بمراعاة نوعية الحرث (قمح، شعير، ذرة...) وكيفية الغرس وأوقاته؛ إنه فعل محاكاتي بامتياز اكتسبه الآباء ونقلوه إلى الجيل المتعلم الذي أصبح يساعدهم في أنشطة الحرث والسقي. لكن رغم كل ذلك لا تزال الساكنة لم تتخلى عن مصدر عيشها الأول، إنها مسؤولية أسندتها العادة للنساء والأطفال والتي أصبحت تتخذ شكلا آخر شيئا فشيئا حيث أدى استقرار الساكنة إلى ظهور نوع آخر من تربية الماشية يسمى «tibldiyin» ومزاولتهم لمهنة tasbabt.

لقد كان أول شيء تم التفكير فيه بعد الاستقرار هو تعبيد الطريق ليتمكنوا من جلب الحاجيات الضرورية لهم، حيث اجتمع سكان القرية واتفقوا على ضرورة تعبيدها حتى تصل لكل ساكنها. إن بداية أشغال الطريق لم تعرف وجود أي مساندة من طرف جهاز الدولة وأي وسائل حديثة تساعد هؤلاء الأفراد على الحفر، وقد تمت هذه العملية بالأدوات التقليدية التي يتوفرون عليها وبفضل روح التضامن وألوية المصلحة العامة التي تجمعهم؛ بالإضافة إلى حالات وفيات لنساء حوامل ومرضى قد شهدوها ولم يبلغوا المستشفيات حتى فاتتهم المنة

الانسان والتنمية: أي مجتمع للغد من خلال دراسة سيرورة ومآل تجربة مدرسة الرحل

قبل الأوان. وهو ما جعل عملية استقرار الرحل وتزايدها تتداخل فيه عدة عوامل كان أولها تثبيت الرحل بتدريس أبنائهم وبناء المدرسة كعامل رئيسي، وثانيها يكمن في تعبيد الطريق ومزاولة أنشطة أخرى، مما أدى إلى أزمة الترحال بالمنطقة المدروسة.

من خلال رصدنا لسيرورة التحول التي ألحقتها مدرسة الرحل على الرحل أنفسهم، يتضح لنا بأنه تم الانتقال من نمط عيش يعتمد على الرعي والترحال كمصدر أساسي لديهم إلى نمط آخر يتميز بالتوطين وبتنوع الأنشطة وتعدد المداخل. ولقد ساهم هذا التحول كذلك من الانتقال من نمط عيش لم يحدد بعد تخصصه إذا ما اعتمدنا التعريف الغربي لعلم الاجتماع القروي إلى نمط يندرج في خانته والذي يعتمد على الزراعة بشكل أساسي إلى جانب أنشطة أخرى.

على سبيل الختم:

لقد أدى قبول الرحل بفكرة المدرسة وتشبثهم بتدريس أبنائهم إلى تحقيق الغاية التي تأسست من أجلها بفضل مجموعة من الفاعلين وخاصة مؤسسات المجتمع المدني، حيث كان للجمعية الإسبانية وقع خاص في هذه التجربة بل كانت وراء فكرة مدرسة الرحل؛ لكن بفعل أزمة سنة 2008 انسحبت من الدعم الذي كانت تؤمّنه لهذه التجربة. وهو ما أدى إلى احتضانها من طرف الدولة.

بفضل كل هذه الجهود استطاع أبناء الرحل التمدد وتسلق السلم الاجتماعي حيث لم يمنعهم لا المحيط المدرسي المتمثل في بعد المسافة بين المدرسة ومساكين الأسر، ولا المسالك الوعرة بالإضافة إلى العوامل المناخية من ولوج المدرسة. وهو ما يبين أن التعليم والتعلم حرية وقدرة كما عبر عنه عالم الاقتصاد الهندي أمرتيا سن. وبسبب المشاكل التي تخبطت بها هذه التجربة والنتائج الغير المتوقعة التي وقعت بسبب قصور رؤى الفاعلين التي ركزت على تربية الأطفال واغفال مستقبل الرحل. ومن النتائج الغير المتوقعة لهذه التجربة نذكر: استقرار الرحل وتغيير نمط عيشهم، البحث عن مصادر أخرى تؤمن مدخولهم في أنشطة أخرى غير التي ألفوها... وبهذا فأن الأمر يتطلب تقديم بعض التوصيات (الحلول) أهمها:

الانسان والتنمية: أي مجتمع للغد من خلال دراسة سيرورة ومآل تجربة مدرسة الرحل

- إعادة النظر في هذه التجربة نظرا لقصورها على تنمية فئة دون مراعاة مستقبل الأخرى واستبدالها بتصوير شامل يأخذ بعين الاعتبار الابعاد المختلفة لهذه الفئة؛
- يجب على واضعي المقررات الدراسية مراعاة السياق السوسيو-ثقافي لهذه الفئة؛
- يجب توفير الوسائل البيداغوجية الضرورية لنجاح العملية التعليمية التعلمية ما لم يتم تغيير المقررات الدراسية واستبدالها بالمقررات التي تتلاءم ومحيط عيش هذه الفئة؛
- ضرورة تأمين الزمن المدرسي للمتعلمين بالنسبة للخيم المتنقلة؛
- ضرورة مراعاة مستقبل الرحل إذا ما تم تعميم هذه التجربة.

البيبلوغرافيا

المراجع باللغة العربية:

- (1) التقرير التركيبي للمخطط الاستعجالي(2009-2012)، نونبر 2008.
- (2) تيودور كبلوف، البحث السوسولوجي، دار الفكر الجديد-بيروت، ترجمة: نجاة عياش، تدقيق: عسان سلمان، 1979.
- (3) قسطاني بن محمد، واحة غريس والاستعمار: آليات التحول وأشكال المقاومة، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، دار أبي رقرق للطباعة والنشر بالرباط، 2018.
- (4) النجاري زينب وآخرون: قضايا في سوسولوجيا التربية النوع والبيئة والقيم، ط1، مطابع الرباط نت، 2018.

المراجع باللغة الأجنبية:

- 1) CHICH Jeanne," Berger au Maroc : Métier, emploi et tendance de l'élevage ", Bulletin d'information sur les systèmes pastoraux du Nord du l'Afrique et du Sahel, n°. 3, vol 5, Décembre 1995.
- 2) GRAFMEYER Jozeph, L'ECOLE DE CHICAGO naissance de l'écologie urbaine, Chicago, les éditions du champ urbain, CRU, 1979. 1984, 1990, Aubier, 2004.
- 3) MAHDI Mohamed, DOMINGUEZ Pablo, "Regard anthropologique su la transhumance et modernité au Maroc" Journal of Depopulation and Rural Developement Studies, ager, n°. 8, 2009.
- 4) MARCEAU Gast, L'école nomade au Hoggar : une drôle d'histoire, in revue musulman et de la Méditerranée, fichier PDF généré 19/07/2018.
- 5) RACHIK Hassan, comment rester nomade, Afrique de Nord, 2012.
- 6) SKOUNTI Ahmed, le sang et le sol nomadisme et sédentarisation au Maroc, Institut Royal de la culture Amazigh, Rabat, 2012.

ويبوغرافيا:

<http://www.medias24.com>.

الانسان والتنمية: أي مجتمع للغد من خلال دراسة سيرورة ومآل تجربة مدرسة الرحل